لورد كرومر عن الصين

لا يزال لورد كرومر مهتمًّا بالمسائل الشرقية ولا يزال الاوربيون ينظرون اليهِ كاكبر ثقة فيها . وقد ظهر في العام الماضي كتاب عن حوادث الصين الاخيرة وحالتها السياسية لرجل اسمهُ بلند فطالعهُ لورد كرومر وبنى عليهِ مقالة في مجلة القرن التاسع عشر قرأناها فرأينا فيها ما اعتدنا رؤيتهُ في اقوالهِ من الآراء الصائبة والاحكام المبنية على قواعد علم الاجتماع لكننا اميل فيها الى التشاؤم منهُ الى التفاؤل فاقتطفنا منها ما يأتي قال:

لقد انتشرت الآن في البلاد الشرقية اوراق الدستور فصارت او يخشى ان تصير معاثر في سبل الاصلاح فتراها مبثوثة في تركيا وايران والصين كأنها انتشرت بالعدوى ولا بدَّ من ان تسير سيرها الخاص بها كسائر الامراض المعدية

اذا أُعطي الدستور لبلاد قابلهُ الاهلون اولاً بالتهليل والابتهاج . وتغنّى بمدحهِ عامتهم وخاصتهم وعلّقوا عليهِ آمالاً كباراً . كذا حدث في ايطاليا زمن غاريبالدي وكذا حدث في تركيا وايران والصين . وقد قال مؤلف هذا الكتاب ان الناس تعانقوا في الصين وهم يبكون فرحًا قائلين قد نلنا الحرية والمساواة والاخاء . ونحن الانكليز لا نبرأ من اللوم على ما يرى من تعلّق العثمانيين والفرس والصينيين بحبال الآمال لان عندنا اناساً يعتقدون انهُ يجب على كل الامم ان تأخذ اخذنا وتنسج على منوالنا وهم من هذا القبيل مثل رجل من اصدقائي مرَّ من بورت سعيد الى مصر فحكم ان المصريين لا يصلحون للزراعة لانهم لا يكومون الدريس في اطيانهم كما نفعل نحن في بلاد الانكليز . وقد حاولت ان ابيّن لهُ ان طريقتنا لا تصلح في القطر المصري فلم يقتنع . فان عندنا رجالاً يطوفون في البلدان ويقولون لاهلها ان مجالس النواب تصلح الامم وتغير اخلاقها واطوارها . وقد قال مؤلف هذا الكتاب ان قائم زعيم الجمهور بين في الصين يعتقد ان للدستور فعلاً سحريًّا في النفوس ليذيل الامم الحكمة والقوة والمنعة . وما يقولهُ قائم في الصين يقولهُ كثيرون في القسطنطينية والقاهرة وطهران

ومن رأي المؤلف ان العقبة الكؤود في طريق الصين لا يمكن ازالتها بتغيير شكل الحكومة سواء اعطيت مقاليدها لرجل جمهوري بحت مثل سن يات سن وساعدهُ جمهور من متقلدي الاجانب او لامرأة سفاكة للدماء التفتت في أخريات ايامها الى اوربا لتتناول منها الاصلاح حاسبة انهُ السبيل الوحيد لحفظ بلادها ولحفظ الملك في بيتها

وداء بلاد الصين ليس سياسيا ولا يمكن ان يشفى بكل الاساليب السياسية والقوانين

الدستورية بل هو معاشي اجتماعي فان الضرار ومحبة كثرة النسل الناتجة عن عبادة الاسلاف اكثرت السكان حتى ازدحمت بهم البلاد واكتظت اكتظاظاً ولذلك كثرت فيها المجاعات والثورات . وكل الذين نادوا بالاصلاح لم يتكلم احد منهم كلمة في هذا الشأن

وهذا الداء فاشٍ في بلاد الهند ايضاً ولا يمكن شفاؤهُ بالاعمال الخيرية لان هذه الاعمال تقاوم الامراض وتقلل الوفيات فتزيد السكان ازدحاماً . ولم يكن عدد السكان يزيد زيادة كبيرة في عهد ملوك الهند السابقين لان المجاعات والاوبئة كانت تفتك بهم والحروب الداخلية تلاشي كثيرين منهم فلا يبقى الاَّ من كان اصلح من غيره للبقاء . والآن منعت الحروب الداخلية وبادر اهل البر والاحسان الى معالجة المرضى حتى لا يموت احد يمكن ان يشفى بالعلاج والرقاية فزاد عدد السكان زيادة كبيرة وازدحمت بهم البلاد . لا اقول ذلك لحط من كرامة اهل البر والاحسان كلاَّ بل اني اعتقد ان الحكومة التي تقاوم فعلهم او لا تأخذ بيدهم هي حكومة منحطة خالية من الشفقة والحنان ولكن هذا لا ينفي كون ازدياد السكان عقبة من اكبر العقبات التي تلاقيها كل حكومة في سبيلها

ويمكن اصلاح الحال في الصين بعض الاصلاح باغراء الناس بالهاجرة حتى لا تبقى بلادهم مزدحمة بهم وحتى تصير خيراتها كافية للذين يبقون منهم فيها فلا تضيق عليهم موارد الرزق . ولكن مهاجرة الصينيين اصبحت الآن ضرباً من المحال لان الاوربيين والاميركيين اوصدوا ابوابهم في وجوههم خوفاً من ان يتغلبوا على عمالهم فيميتوهم جوعاً لان العامل الصيني يكتفي باجرة لا تكفي لمعيشة العامل الاوربي او الاميركي وهذا هو الخطر الاصفر الحقيقي . ولا عجب اذا اغتاظ الصينيون من هذه المعاملة وحسبوها بعيدة عن الانصاف فان الصيني يقول مخاطباً الاوربيين والاميركيين انكم تطلبون مني ان افتح ابوابي لرسلكم وادفع الاذى عنهم وانا لست في حاجة اليهم لان عندي في مذهب كنفوشيوس ما يغنيني عن كل مذهب آخر ومع ذلك البي طلبكم والعدل يقضي ان تعاملوني بالمثل وليبحوا لابناء وطني ان يدخلوا بلادكم ويرتزقوا فيها بعمل ايديهم والاَّ فادّعاؤكم الانصاف وحب البشر ادعاء فارغ تكذبهُ شواهد الامتحان . وليس للاوربيين والاميركيين الاَّ جواب واحد وهو ان مصالحهم تقضي عليهم ان يمنعوا مناظرة الصينيين لهم وان الحق للقوة . وهذا الجواب يرضي رجال السياسة ولكنهُ لا يرضي رجال الآداب والفضائل

ولكن هب انهُ ابيح للصينيين ان يهاجروا الى البلدان الاوربية والاميركية فهذه المهاجرة لا تغنيهم ولا تزيل ما في بلادهم من الازدحام لانها لا يمكن ان تبلغ مبلغاً كبيراً .

واما الدواء الثاني لازدحام السكان فهو تسهيل انتقالهم من الاماكن المزدحمة الى الاماكن القليلة السكان في الصين نفسها فان فيها بلاداً واسعة لا سكان فيها او سكانها قليلون جداً والانتقال اليها ليس بالامر المستحيل والسبيل اليه ان تمد سكك الحديد في البلاد وتصلح اعمال الري فيها لكي يسهل استثمار خيراتها وهي كثيرة جداً باجماع الآراء. ولكن هذه الاعمال لا تعمل الا اذا تيسر المال الكافي لعملها. والمال من اوربا والماليون الاوربيون لا يقدمون اموالهم الا اذا وثقوا انها تنفق في السبل النافعة حتى تبقى محفوظة وتأتيهم بالربح الكافي. فلا بد اذاً من اصلاح ادارة البلاد المالية قبل كل شيء حتى يكون للماليين ثقة بها. وهذه الثقة معدومة الآن من بلاد الصين فان رجال الحكومة الجمهورية فيها هم مثل رجال الحكومة الملكية السالفة لا يستطيعون ان يستلموا اموال الحكومة من غير ان يختلسوا جانباً منها

قال باحث خبير باحوال الشرق وهو المستر ستلي لاين بول ان الشرقيين من اميل الناس الى اقتباس معايب الغربيين. وهذا ما حدث في الهند وتركيا ومصر وايران. ولم يجر اليابانيون هذا المجرى حتى الآن بل لا يزالون متمسكين بفضائل اسلافهم ولكن لا يبعد ان يتركوها ويقتبسوا رذائل الغربيين. وقال المستر بلند مؤلف هذا الكتاب ان الصين الفتاة تركت تعاليم كونفوشيوس التي تحث على الآداب ومحبة الوطن ولم تستطع ان تقتبس ما يقوم مقامها من الآداب الاوربية. ابدلت المصباح القديم بمصباح جديد ولكنها لم تجد الزيت لهذا المصباح لتنير الظلمة التي امست فيها. يتعلم الشاب الصيني في جامعة هرفرد او جامعة اكسفرد فيتشرب عقله مبادىء اجتماعية مناقضة للمبادىء المتبعة في بلاده ولكن المبادىء التي تشربها لا تجعله ينظر الى الحياة كما ينظر اليها الانجلوسكسون ولا توجد فيه الاخلاق التي هي نتائج قرون كثيرة مرت علينا ونحن نتشيء عمراننا. فيتعلم الصيني اعلى العلوم الاوربية ولكنه يبقى صينياً بعيداً عن التخلق باخلاقنا العلمية والعملية ينظر الى الامور نظراً فلسفياً فيفتش عن الاسباب ولا تهمه النتائج. يتعلم في مدارس القضاء ويمارس المحاماة عشر سنوات في لندن او وشنطون ثم يرجع الى بلاده وفي نصف سنة يعود الى منهاج اسلافه في آدابه واخلاقه. وهذا الامر معروف شائع في الصين حتى ابطل الاوربيون تنبيه الاذهان اليه

اذا استلم رجال الحكومة الصينية الاموال الكثيرة اللازمة لاصلاح البلاد وتعميرها لا يمكن ان تصلح بل يبقى دستورها حبراً على ورق لهل ينفقونها بالعفة والامانة. قال المؤلفان الاوربيان القاطنين في الصين والمتجرين معها يعتقدون ان الصينيين الذين تعلموا في مدارس المرسلين ليسوا اكثر امانة من غيرهم من الصينيين

ولذلك لا يصحُّ ان تُقرَض الصين الاموال الاوربية مالم يراقب الاوربيون انفاقها مراقبة دقيقة . والصينيون يكرهون هذه المراقبة ويأبونها لاسباب مختلفة بعضها شريف وبعضها غير شريف ولكن لا شبهة في ان جانباً كبيراً من الاموال يضيع ان لم يراقَب انفاقها المراقبة التي اشرت اليها . ولا تحلُّ مشكلة الصين بغير هذه المراقبة . ويظهر كيف ينفق الصينيون اموالهم من الحادثة التالية التي ذكرها المؤلف وهي ان شركة سكة الحديد المعروفة بسكة مرشوان استعدَّت لانشاء هذه السكة بتعيين مأموري المحطات اولاً . وان رجال الحكومة الصينية ابتاعوا ١٤٠٠ مدفع من المدافع الالمانية المتعددة الطلقات بسبع مئة الف جنيه وابقوها في شنغاي فلم يستعملوها ولا دفعوا ثمنها

والذين اختبروا الادارة المالية في البلدان الشرقية يقولون ان مراقبة نفقات الحكومة لا تكفي بل لا بدَّ ايضاً من مراقبة اساليب دخلها فقد قال المستر بلند ان الذين يجبون الضرائب يجبون خمسة ريالات على الاقل لكل ريال يصل الى خزينة الحكومة . وهذا يذكرني بما كان جارياً في القطر المصري في عهد اسمعيل ولذلك يرجى من السياسيين والماليين الاوربيين ان يحظروا الى مصلحة الدائنين والى مصلحة الصينيين انفسهم ولا يفكوا عن طلب المراقبة المالية الدقيقة كشرط اساسي لازم لقرض الاموال

اما كون الجمهورية ثابتة في الصين او غير ثابتة فالثقات الذين يحقُّ لهم ان يبدوا رأياً في هذا الموضوع مختلفون فيهِ تمام الاختلاف ولكن المستر بلند واثق ان تعاليم كنفوشيوس راسخة في نفوس الصينيين تمام الرسوخ ولا يمكن نزعها منهم وعليها بني نظام الصين السياسي والاجتماعي حتى الآن . وان الحكم النيابي قد يفلح في ولاية كنتون وولاية كوانغ لانهما اكثر الولايات الصينية ارتقاء واما في سائر الولايات فلا امل بان تصير الحكومة نيابية اي يصير مجلسها النيابي نائباً حقيقياً عن الشعب الصيني . ومن رأيهِ انهُ يمكن بقاء الجمهورية في الصين بعد نزع كل المزايا الجمهورية منها . وهذا قد اخذت فيهِ الحكومة الحاضرة فصارت جمهورية بالاسم واستبدادية بالفعل بل صارت استبدادية غير مشروعة تستقل عن جماعة من الافاقين الى جماعة اخرى . وما ادعاه اصحابها النيابة عن الشعب الاَّ عامل من العوامل التي ستسبب زوالها

اما انا فلا اعرف من امور الصين ما يخولني اثبات ما قالهُ المستر بلند او نفيهُ ولكن يظهر ان ما قالهُ عن ماضي الصين مبني على بحث دقيق محقق وما قالهُ عن مستقبلها يميل الى تصديقهِ الذين درسوا اخلاق الشرقيين وعرفوا تاريخ الشرق

كرومر